

II

الموسيقى الصوفية في تونس

يركز المتصوفون عملهم على حب الله حبا عميقا وعلى الانغماس في عبادته الى درجة الإرهاق والعمل على التخلي عن ملذات الحياة فأكلهم قليل بسيط يرتكز عند بعضهم على الخبز والزيتون وقد أستمت الى أمداح القادرية بالجريد بزواية سيدي المولدي بمدينة توزر أنهم يعتزون بأكلهم الخبز فقط ويعتمدون على مضغهم له ليصوغه ريقهم للابتلاع والتغذي ويلبسون الثياب الخشنة الصوفية وإلى الآن يلبس الذكاره بالطريقة الشاذلية عند قيامهم للذكر ما يسمى "بالبدن" وهو عبارة عن قميص طويل من نسيج خشن صوفي يلبسونه منفردا وهذا مخالف لقول الله عز وجل " ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون" ويعيشون في عزلة لا يهتمون بشيء من شؤون الحياة الرغدة ولا يفكرون في الحكم والسياسة وقد نعتهم الفقهاء بالرهبانية التي ينكرها الإسلام .

وقد قال الرسول الأعظم ﷺ في هذا الشأن : " في كل أمة رهبانية ورهبانية أمتي الجهاد " وقال شراح هذا الحديث الشريف المقصود هو الجهاد الأكبر والأصغر .

واستمر الخلاف بين أهل الفقه وأهل التصور إلى أن برز القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي فحمل الأمة الإسلامية على مذهب أهل السنة وإتباع المذهب الأشعري وقرب إليه الصوفية فكثر عددهم بنى لهم التكايا والمزارات في المدن والأرياف وسمح لمباشرة شعارتهم الخاصة بشرط أن ال يقبل فيها الى السني ألا شعري كما أكده المقرئزي وقد ساعده على ذلك انهيار الدولة الفاطمية بمصر القضاء على ما تبقى من أنصارها بالشمال الافريقي .

وأصبح لتلك التكايا والزوايا دور إيجابي هام في تركيز التعاليم الإسلامية بإيواء الشبان وتحفيظهم القرآن الكريم ورفع الأمية عنهم وأصبحت هنالك زوايا تقوم بتكوين المؤدبين وتوزيعهم في الأرياف مثل زاوية " زهرة مدين" قرب مدينة باجة بتونس وزاوية الحملاوي بشرقي الجزائر وغيرها كثير في مختلف البلاد الإسلامية .

وقامت بعض الطرق بنشر الإسلام في صحراء أفريقيا وفي البلدان المتاخمة لها مثل السنغال، ومالي، والنيجر، والتشاد، ونيجيريا، وبركينافاسو، وغير ذلك بإرسال بعثات تشتري الأطفال من هذه البلدان تأويهم وتعلمهم القرآن والفقه والثقافة العربية ثم تعتقهم وترجعهم إلى بلدانهم ليشع كل منهم في أسرته وفي قبيلته ومنهم من يؤسس في بلده زاوية للطريقة الصوفية التي تبنته، وهكذا نرى انتشار الطريقة التيجانية نسبة للشيخ أحمد التيجاني (1150- 1230 هـ 1737 - 1814 م) بالسينغال وشيوخهم لهم مكانة مرموقة لدى الشعب ولدى رجال الدولة إلى الآن .

ومن إيجابيات الطرق الصوفية مشاركتها في الكفاح ضد الحملات الصليبية وفي مقاومة الاستعمار، وقد أبلت الرحمانية بقيادة الشيخ البشير الزواوي البلاء المستميت في المعارك التي قادها الأمير عبد القادر ضد الجيش الفرنسي المحتل وتجددت مساهمتها في ثورة المقراني ضد الفرنسيين سنة 1871، كما لعبت السنوسية دورا رائدا في الحرب الليبية ضد الجيش الإيطالي . هذا وقد اعتنت أغلب الطرق الصوفية بتونس بالتغني بقصة مولد الرسول الأعمم عليه الصلاة والسلام، وتمتاز تونس بتنوع مقامات الانشاد والتعطيرة حسبا نستمع إليه من المرحوم الشيخ على البراق وفرقة محمد عزيز وتتخلل القصة التي تحكى من تأليف الشيخ البرزنجي أناشيد دينية من عدة طرق صوفية

وأول طريقة صوفية انتصبت بتونس كانت الطريقة القادرية نسبة إلى سيدي عبد القادر الكيلاني دفين بغداد (561/470) وقد أتى بها الى تونس الشيخ أو مدين شعيب دفين مدينة تلمسان بالجزائر وقد تلى الطريقة عن صاحبها عنما قابله بمكة المكرمة واقتنع بصلاحه وروى عنه الحديث الشريف وعند عودته توقف بتونس واجتمع به شيوخ عديديون مثل أبي يوسف الوهماني المتوفى سنة 621هـ وعبد العزيز المهراوي المتوفى سنة 621 هـ وأبي علي النفطي المتوفى سنة 610 هـ وأبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة 656 هـ . ومن ذلك الحين بدأ انتشار الطريقة القادرية وزادت توسعا عندما بنى لها الملك حمودة باشا الزاوية الكبرى بمدينة منزل بوزلفا .

وتختص هذه الطريقة بالتغني ببردة الشيخ ألبوصيري في جماعتين تبدأ الأولى فتدخل عليها الثانية في منتصف الجملة بالإعادة وهو ما نعرفه في الغناء الأوروبي " بالكانون" زيادة عما لها من أمداح على المقامات العربية باللهجة التونسية ولهذه الطريقة استعراض بشوارع المدن تفتح بما يسمى بالعادة وهل :بسم الله .. وبالله.. مولانا عظيم الشأن.. سألناك بالعدنان .. سيدنا رسول الله

وللشيخ أبي مدين زاوية بتونس كان لها وقف لاستضافة كل من يأتي من الحرمين الشريفين كان استفاد منه المطرب المدني الشيخ إبراهيم السمان في الثلاثينات وقد لحن في الخمسينات وصلة من الموشحات من تأليف الشيخ أبي مدين صفتها في قالب المغرب العربي للغناء التقليدي سجلها عميد الموسيقيين الجزائريين المرحوم الأستاذ "أحمد وهبي" وهي تتركب من ثلاثة موشحات طالع كل منها :

1- زراني منيتي طابت أوقاتي

2- أعلم ياخلي

3 شوقي دعاني وفنيت ياقرما

كما لحن له قصيدا غنته المطربة نعمه مطلعته :

"إليك ممدت الكف في كل شدة

ومنك وجدت اللطف في كل نائب

ويعد القادرية ظهرت الطريقة الشاذلية نسبة إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي 656/593هـ
(1258/1196م) المتوفى في طريقه إلى الحج ودفن بقريّة حميثراء بصعيد مصر، وأعماله
مستمرة بمقامة بتونس تبدأ بقراءة القرآن جامعة يليها قراءة لا حد أحزابه وتختتم بالذكر الذي يقف
فيه المريدون صفيين متقابلين في لباس "البدن" الصوفي الخشن، يذكرون اسم الجلالة في الظلام
الحالك ليسنوا آنذاك مشاغل الدنيا ومشاكلها بينما يقوم الشيخ المنشدون بارتجال غناء أبياته في

مدح الرسول ﷺ من حين إلى آخر في الجواب

وعندما أسسنا مدرسة تجويد القرآن الكريم اقتضى ذلك تعليم طلابها الإنشاد على
المقامات التونسية فلحنت لهم جزءا من حزب الحمد للشيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي على
جميع تلك المقامات وقد سجلت على كاسات

وفي نفس الفترة ظهرت الولية الصالحة السيدة عائشة المنوبية (665/589 هـ) واعتمدت
طريقتها على المدائح غناء وتقوم بذلك فرقة نسائية تدعى الربايبية تشتمل على عازفة رباب أو
كمنجة وأربع موافعات على دفوف ويقوم الجميع بالغناء في مواعيد أسبوعية بكل من مقاميها
بتونس وبضاحية منوبة كما يشاركن في الافراح والقرب من العاصمة يوجد بجبل المنار ضريح
الولي الصالح سيدي أبي سعيد الباجي (628/551 هـ) وهو أحد أصحاب الشيخ أبي مدين السالف
الذكر تقام به حفلات الربايبية النسائية وحفلات شعبية تعزف فيها آلة المزود (الممزوج) مع الغناء
ومن امداحه

على رياس الأبحار يا رفيقي نغره يا باجي

ومن الطرق الصوفية الشائعة الطريقة العلوية نسبة إلى سيدي أبي علي النفطي المتوفي سنة 616 هـ (1213 م) وهو بحكم وجود ضريحه بمدينة نفطة بالجنوب التونسي المتاخم للصحراء كانت أغاني امداحه صحراوية تغلب عليها المقامات الخماسية الإفريقية الأصل ومن أشهر الطرق الصوفية "السلامية" نسبة للشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر (981/880 هـ) سلكت طريقته سبيل الشاذلي السابقة الذكر وطريقة الشيخ أحمد بن عروس المتوفي سنة 686 هـ وتقول الشيخ عبد السلام بأفريقيا (تونس) يضرب على بنديره (دقه) ويفني قطعه الصوفية ثم رحل إلى ليبيا وأسس زاويته مدينة "زليطن" حيث توجد قبيلته (الفواتير) وقد دفن بها وإلى الآن امدحه مختلطة العروسية ومما ينسب للشيخ ابن عروس :

يا رب أنت رجايا مالي سند غير بابك
من النار نجي أعضايا وأسبل علي حجابك

وجماعة السلامة والعروسية ينشدون امداحهم وهم وقوف في شكر دائرة يدور كل منهم في مكانه بترنخ وفي آن وحد حول شيخهم الذي يتوسطهم بحيث يقلدون في ذلك دوران الكوكب حول انفسها وحول الشمس في آن واحد

ومن شيوخ الصوفية بتونس أو عبد الله محمد الظريف المتوفى سنة 787 هـ (1385 م

وضريحه بجل المنار قرب سيدي بوسعيد الباجي

وقد تفرد هذا الشيخ بالعلم والأدب والفن وله قصيد يذكر في المقامات (الطبع) الموسيقية الشائعة بتونس وطالعه

من سفك دمعي ومن تحبير أجفاني صنعت الهوى جلية من حر نيران
ومن نحولي ومن سقمي وشدة ما ألقاه من فرط أشواقي وأشجاني
ومن ما ذكر من أسماء الطبوع) الفنية وهي المعروفة بالمقامات كما أسلفنا :

جس (الرماوي) وجر (الذيل من طرب وتاه في (الرمل) أحيانا فأحياني
و(اصهان) إذا يحلي (بصيكته) (محير) الحال (مزموما) بهجر ان
فهجاني ما بكى أهل (العراق) على فقد الحسين ففاضت منه أجفاني
يشكو (النوى) ودموع العين تسبقه حتى رثيت له شوقا فأبكاني
و(الرصد) أشعل في قلب العليل جوى و(ماية) أحرقت قلبي وأكناني
و(الإصبعين) إذا يحكي بصولته حتى أذاب فؤد المدنف العاني
فقلت ما بك صف لي ما ابتليت به ما بال جسمك مكلوم الحشا فان
هيجت لي لوعة في القلب ساكنة خفض قليلا فعد هيجت أحزاني
....."الخ"

ومن الشيوخ سيدي محمد بن عيسى دفين مدينة مكناس بالمغرب المتوفي سنة
933هـ/1526م وطريقته تعتبر من أهم الطرق الصوفية في كامل المغرب العربي فنيا حيث قامت
الحفاظ على التراث الثنائي وأدخلته في أعمالها مع تغيير كلمات أحيانا، ومع ذلك لها برنامج
آخر خاص بها منه ما يسمى بالمجرد ، وهي قطع ملحنه على وزن 5/4 تبدأ بطيئة ثم تسرع،
ومن قطعها ما يسمى ببراول العيساوية، وهي تستقطب الشباب بإدخاله في صف الذكارة الذين
يذكرون اسم الجلاله وقوفا على أوزان الموشحات والمألوف التي تنشدها جماعة العمل الجالسة
أمامهم وتصاحبها آلات الإيقاع وتنزل الطريقة الشبان منازل الحيوانات على غارا الكشافة لكن
شباب العيساوية يقومون بأفعل تتصل بالحيوان الذي يمثله كل منهم فممثل النعامة يبتلع
المسامير وممثل الجمل يتمرغ على أوراق الهندي (الشوكي) وفي آخر الحفل يخرج عكاشة وهو
ممثل الأسد مكبلا بسلاسل غليظة ويقوم بأعمال تبرز قوته التي تخيف بعض النظارة على أنغام
العيساوية، وقد اجتهدنا لإزالة الشعوذات على الحفاظ بالعمل الفني من فجر الاستقلال، وقد
تفرعت عن العيساوية في عملها الفني طرق أخرى بتونس نذكر منها

1- "العوامرية" أو "العامرية" نسبة للشيخ عامر المزوغي الذي عاش في القرن الحادي عشر هجري وتتميز طريقته باستعمال آلة الزكرة (الزرنة) وهي منتشرة في منطقة الساحل التونسي .

2- العزوية نسبة للشيخ علي عزوز دفين مدينة زغوان يقام العمل الفني بضريحه إلى الآن وقد كان مقره بالنهج الذي يحمل اسمه بتونس يقن فيه التراث الغنائي للشبان في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ومن خريجي هذه الدروس شيخ الفنانين بمدينة الكاف الأستاذ الصحبي المسراطي، وقد أدركته في الستينات وكان عمره مائة وتسع سنين آنذاك.
ومن الطرق التي لها أنشيدتها الخاصة التيجانية نسبة إلى الشيخ أحمد التيجاني 1250/1153 هـ (1814/1737م) الذي له فضل كبير في نشر بأفريقيا وخاصة بالسنغال وأغاني هذه الطريقة ذات طابع صحراوي يؤديها أربعة مغنين أو مغنيات مجتمعين على طبل ينقرون عليه ومن مديحهم

ربي سألتك بالنبي الأواب والال والأصحاب

والتيجاني وأصحابو الأقطاب الغوث سيدي احمد

يسر أمري وأفتح الأبواب واصلح لي اللي قسد

وهناك عدة طرق أخرى تمارسها اقلية من المتساكنين مثل الطيبية والرحمانية والحشانية وحتى الزنوج لهم طقوسهم وأغانيتهم وكانت لهم مسيرة سنوية إلى سيدي سعد بو عكروشه الذي يعتقدون فيه الولاية يسبرون وهم يغنون ويرقصون وكثير من العائلات المسلمة واليهودية كانوا يصرون على إقامة حفل سنوي في فصل الربيع ببوتهم ليذهب عنهم المرض طيلة السنة وبالجملة فقد كانت الطرق الصوفية تلعب دورا إيجابيا في تعليم القرآن الكريم ودراسة الفقه الإسلام ونشر الدين الحنيف بأفريقيا والدفاع عن الوطن ضد المستعمرين والحفاظ على التراث الموسيقي حيا متداولاً بين الأجيال وفي الفترات الاخيرة أصبحنا نستمع إلى امداح صوفية تسيء إلى الاسلام وتنسب إلى بعض الشيوخ أشياء هي من خصائص الخالق عز وجل ولا بد للإذاعات السمعية والمرئية أن تراقب هذا الوضع ولا تسمح ببث القطع التي تحرض على الكفر أحيانا مثل : (في الطيبية)

مولاي الطيب عز الإخوان احضر لا تغيب ساكن وزان ؟

(وعن التيجانية) :

سيدي أحمد نر سهادي
يفزع ويزل عني ضيمي وأحزاني

في مدح نجل طه الهادي
فصل الشيق بيه ننادي

(ومن العيساوية)

الشيخ زاروه الفقره
ياشيخ داوني نبر؟

في يوم العيد في ثاني عيد
يا بابا الحاج يا بابا الحاج

" قل لا أملك لنفس نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما

مسنى السوء ان أنا الا بشير لقوم يؤمنون صدق الله العظيم (سورة الأعراف الآية 187)

الدكتور : صالح المهدي